وجهة النظر الجديدة فى الحياة

للكاتب الصينى الكبير والده يوله شنغ

[حديث ألقاه فى جمعية الثقافة المركزية بشنغ كنغ]

بقلم الأستاذ نور ناهين

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

ومع ذلك فإن فى تاريخ الصين ما يزخر إلى الأمور الشخصية مثل الذى ذكرت ، فمثلا فى عهد أسرة « تنغ » قد استولت على أفرادها النواحى الحزبية ، واستعلن النزاع بين « نيو » و« لى » ، حيث عقدوا عهدا سريا على أن يخصوا الأمبراطور ، وهذا أمر داخلى ، وأما الأمر الخارجى فإنهم اتصلوا بالأجانب وشايعوهم ، ثم اشترك أنصارهم « بان شاو » و« هون تسن » فى النزاع واحدا بعد الآخر ، حتى غرقت الدولة كلها فى بحر المصائب والبلايا . وهذا مثل آخر ، أحدث فى عهد أسرة « سونغ » من النزاع الحزبى بين «وان غان شى» و« يان يو » حيث نفثوا سم خصامهم حتى انتشر وأهلك دولة « سونغ » . وأشد ما يحزن ما عم فى آخر عهد أسرة « مين » من بلاء حزب « دان لين » الذى أثر على مدة حكم الملك أسوأ التأثير . أما ما حدث بعد إعلان الجمهورية الصينية من النزاع الحزبى والخصام ، نخير لنا ألا نذكره مؤقتا ، لنتركه إلى التاريخ

إن مجتمع الصين كله ككتاب تاريخى شامل لما يترتب على الاهتمام بالأمور الشخصية . فكم من الناس من قديم وحديث نجحوا نجاحاً باهرا فى الاعتماد على التهمة الشخصية ! وكم من الأشخاص ، قد تحاربوا وتنافسوا بسبب الأمور الشخصية أيضا ، ذلك لأن الصينيين لا يهمهم إلا ما يعامل به بعضهم بعضا ويهملون ما ينبغى عليهم أن يتعاملوا به كأفراد للطبيعة .

فيجب علينا بعد هذا نحن الصينيين ، فى هذا العصر أن نقصد إلى هدف فى الحياة ، ولا بد أن نهدم ما يحيط بالناس من حدود ، ونبتعد عن نطاق التاع الشخصى ، لنتغلب على الطبيعة مع بعض ، ثم نجدد نظم المجتمع ونصلح شئون الدولة .

يجب علينا أن نجل المستر «لنكولن» زعيم أمريكا المشهور ، ونحترم رأيه العظيم كل الاحترام إذ أنه يريد ألا يسترق الناس أحد من الناس ، ولا يرضى أن يهدد بنى البشر أمثالهم ، ولم يتردد فى إشعال الحرب لإعتاق الرقيق . وكان يبذل جهده لتحرير الرقيق من جهة ، ويحث الناس على الهجرة من جهة أخرى ، حيث دعاهم بأن يتقدموا نحو غرب أمريكا متحدين ، ليفتحوا كنوز طبيعتها البكر ، وهكذا مهد الطريق إلى رقى أمريكا بيديه .

إن أسلوب «لنكولن» العظيم ، هو هدم الحدود بين البشر لقهر الطبيعة ، أو بتعبير آخر أن يتعدى الناس الحدود الضيقة الشخصية فى معاملة بعضهم لبعض ، ثم حثهم على الكفاح والجهاد لاقتطاف الثمرات الطبيعية للحياة ، وهو أسلوب أشبه ما يمكن بأسلوب المخترعين والمكتشفين ، بل إنهم من منبع واحد .

وبمناسبة ذكر الكفاح والحياة المثالية الطبيعية ، أذكر ما أملاه على ركوب البحر من أفكار ، ذلك أننى كنت غارقاً فى أعمال إدارة جريدتى ، فى ربيع سنة ١٥ للجمهورية الصينية ، إذ كنت فى منصب رئيس التحرير والمدير العام ، وكان هدف الإدارة من نواحى العمل والنظم والمقالات كخيط مستقيم ، إذ نبهت أبناء وطنى للثورة على الضباط الشريرين الذين يضرون الوطن ويزعجون الشعوب . ثم تركت إدارة جريدتى مضطراً ، وفررت راكباً من « تيى جيى » إلى شنغ هاى ، حين وصل « تشوبى يو » و « لى جنغ لين » إلى « تين جين » مع قواتهما . ولما خرجت الباخرة من ميناء « تان تو » ، لم أر فى الدنيا إلا الماء العميق والسماء المرتفعة والتقاءها عند الأفق ، وسارت الباخرة فى البحر الواسع رويداً رويداً كغرفة القرع ، وحينئذ شعرت فجأة بسمة الدنيا وصغر البشر ، وفكرت فى الذين لا يزالون يتنافسون ويتنازعون ويتحاربون فى « تين جين » ، مثلهم كمثل عرمة الديدان ، لو أن تلك الجملة من الناس ألقيت فى البحر ، لم يبد شئ إلا الزبد والرغوة فحسب . وعندئذ اعتقدت كل الاعتقاد أن مستقبل الإنسان لن يكون فسيحاً متسعاً ، إلا بعد أن يبتعد الناس عن نطاق التاع الشخصى الضيق ، ويبذلوا أقصى جهدهم فى سلوك طريق الطبيعة العظيمة الأبدية

ما أشد ما يعلق مستقبل الإنسان بآثار الحرب الحاضرة ! فإن من حسن الحظ أن قام الأمريكيون يساعدون انجلترا بقانون الاعارة والتأجير ، ثم يساعدون روسيا والصين أيضاً حتى حولوا موقف دول الحلفاء من الهزيمة إلى النصر ، وكان سبباً فى هزيمة المحور ، وأصبح العالم كله يحلم بمستقبل منير .

وربما رأى بعض الحاذقين أن الأمريكيين من أشد الناس حمقاً ، لأنهم يسلمون ما أنتجوا من السلاح والغذاء إلى حلفائهم بدون أي شرط ، وهم قد دفعوا الضرائب الثقيلة ، وسكبوا عرقاً ودماء . ولكن الأمريكيين أنفسهم ما زالوا يخترعون هكذا ، ويعطون هكذا ، بل إنهم سيستمرون في الاختراع والاعطاء ، وبذلك أصبحت أمريكا زعيمة دول الحلفاء ، وصار الرئيس روزفلت أول السياسيين في العالم ، وصار أهل أمريكا أكثر الناس سعادة . وإن مثل أمريكا الآن مثل الشمس تبعث الحرارة والنور باستمرار ، فحصلت عظمتها وجلالها من بذل الحرارة والنور ، وهي نفسها لا تعنى بتنعمها قط .

وإذا لاحظنا مسألة الأمريكان الاقتصادية بعد الحرب الحاضرة ، وقد نفذت اليوم فعلا ما عرضته على آذان المستمعين الآن من نظرية الشمس والحياة ، ظهرت لأعيننا مشكلة النزاع العلني بين فريقين : أولهما « Expans onist » الذين يقترحون أن يبقى الإنتاج الجليل كما كان بعد الحرب الحاضرة ، كي تتجدد مسألة البطالة ، وهم لا يلاحظون حينئذ دفع الضرائب الثقيلة وتحمل الديون . وثانيهما : « Conservitist » الذين يقترحون اختصار ميزانية الوطن بعد الحرب الحاضرة والنقص من مدى الإنتاج تجنباً للتضخم المالي .

وإني لموافق على رأي « xpans on st » من التوسع في الإنتاج ، فأرجو من أمريكا أن لا تنفذ قرار « Conservitist » الذي يشير بانقاص الانتاج بعد الحرب الحاضرة ، بل يجب عليها أن تستمر في الاختراع والإنتاج ، لتتمتع الجماهير بالنتائج وترتفع المستوى المعيشي ، ثم تبيع ما يبقى من الإنتاج بعد الاستعمال ، ولو بقي شيء من الإنتاج بعد البيع ، فما عليها إلا أن تقدمه للناس هدية . إذ أن ثمة بعد الحرب كثيرا من البلدان تنتظر نهضة ، وكثير من الأمم تحتاج إلى المساعدة والإنقاذ . ولما كانت لأمريكا هذه القوة على الاختراع وتلك القدرة على الإنتاج ، فكيف يجوز أن لا ترفع قواتها إلى أقصى الحد ، كي توفر النعمة لجمهورها خاصة وللعالم كله عامة ؟

إن السياسيين الأوربيين إذا تحدثوا عن سياستهم الداخلية ، طالبوا دائماً برفع المستوى المعيشي ، أما السياسيون الصينيون فقد تعودوا أن يبثوا في الناس حب الاقتصاد والزهد ، وذلك يوضح مذهب الفريقين المختلفين وفلسفتهما ، ويمثل نوعين من السياسة متميزين .

أما كيف يرفع مستوى المعيشة فذلك بالبحث في خامات الطبيعة وقوانينها والأخذ عنها بالاختراع والعمل على زيادة الانتاج . وأما كيف يكون الزهد والاقتصاد فذلك بالقصد في الطعام والكساء ، وجمع النقود مليما بعد مليم ، وتكديس الثروة قيراطا بعد قيراط ، حتى أصبح الشحاذون هم أصحاب الثراء ، وفوق ذلك فان أكبر ضرر ينتج عدم الانتاج والابتكار ، والزهد والشح هو فتح باب الخداع والرشوة ، ولهذا كان ضعف الصين وفقرها .

لقد كان صاحب كتاب « الدول الثلاثة » أعظم الناس عقلا وأكثرهم تجريبا ؛ إذ قال في أول كتابه القيم : « لا بد أن تتطور حالة الدنيا بحيث يتحد الناس بعد مدة الفراق من جهة ، ويفترقون بعد مدة الاتحاد من جهة أخرى » .

ولو أننا رجعنا إلى الخلف خطوة ، نبحث في تأريخ الصين عن أسباب السلام والصلح من جهة ، وعن أسباب التمرد والعصيان من جهة أخرى ، لوجدنا أن السبب الوحيد هو وقوف سياستنا في حدود نطاق المتاع الشخصي الضيق ، وحدود الاقتصاد في إنتاج الزراعة البسيطة ، وعدم استغلال الطبيعة لتحسين حال المجتمع وخصوصاً العجز عن رفع مستوى المعيشة .

لقد كانت مصر من بناة الحضارة بين أبناء آدم ، بل كانت الأولى في العالم من قديم الحضارة وبعد التمدن ؛ إلا أن أهلها ما زالوا يعيشون على ماء النيل فقط ، فاذا لم يرتفع فيضان النيل إلى درجة موفورة ، نقص حصاد الزراع ، ومات الناس جوعا . وإذا لم تكف المؤونة بأن كان إنتاج الزراعة ومحصولها محدودا مع زيادة السكان ، حدثت المصائب دائما ، فلذلك ظلت مصر ضعيفة .

وإلى هنا كشفت الشكلة أمام أعيننا علانية ، فلا بد أن ننزع ما بين البشر من حدود ، ونبعد عن نطاق المتاع الشخصي ، ثم نتجه إلى السماء بقصدنا المبين ، ونستغل الطبيعة بقوتنا المتحدة وعند ذلك تحسن حالة المجتمع وتصلح شئون الوطن ، ونرى أنفسنا متقدمين نحو الأمام مشغولين بالاختراع . تلك هي وجهة نظري الجديدة في الحياة ، وهي نفسها نظرية الشمس والحياة .

نور ناهين